مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 12 عدد: 4، ديسمبر 2023
ص: 316 - 333 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

نظريّتا الوضع والاستعمال واللغة والكلام دراسة مقارنة في المفهوم والإجراء

The theories of instituting and using, langue and parole , a comparative study in concept and procedure

د. خروبي أمين*
Kharroubi Amine
المدرسة العليا للأساتذة بالأغواط (الجزائر)
Higher Normal School of Laghouat (Algeria)
a.kharroubi@ens-laghouat.dz

تاريخ الإرسال: 2023/08/07	تاريخ القبول: 2023/10/18	تاريخ النشر: 2023/12/15

ملخص البحث

يهدف بحثنا هذا إلى الكشف عن جانب مهم من تراثنا الذي يتقاطع بوضوح مع الدراسات اللسانية الحديثة فيما تطرحه، فضلا عما يفوقها به من نظريات، وقد اخترنا أن يدور بحثنا حول نظريتين بارزتين اهتم بإحداهما علماؤنا القدامى وقدموا في شأنها دراسات مهمة، وهي نظرية الوضع والاستعمال، ونظرية أخرى اهتم بها الغربيون حديثا وفرعوا عنها دراسات عديدة، وهي نظرية اللغة والكلام، وسنرى من خلال هذا البحث أن النظرية العربية القديمة لا تقل أهمية ونضجا عما قدمته الدراسات الحديثة ممثلةً فيما قدمه رائدها ومؤسسها عالم اللغة فرديناند دي سوسير ومن جاء بعده، ومشكلة البحث تمثلت في هذه الأسئلة وهي: ما مدى توافق نظرية الوضع والاستعمال مع نظرية اللغة والكلام؟ وكيف كان أثر كلّ منهما على منظومة الدراسات اللغوية؟ وما هي الأسس المعرفية التي تأسست عليها هاتين النظريتين ؟ وقد اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي في بحثنا وكذا المنهج المقارن لكون بحثنا دراسة مقارنة بين نظريتين، وقد كانت نتيجة بحثنا أننا توصلنا إلى إثبات توافق كبير بين النظريتين من حيث المفهوم والأثر العلمي في الدراسات اللغوية.

الكلمات المفتاحية : الوضع ، الاستعمال ، اللغة ، الكلام ، النظام.

Abstract :

Our research aims to reveal an important aspect of our heritage that clearly intersects with modern linguistic studies in what it presents, as well as the theories that surpass them, We have chosen to revolve our research around two

* خروبي أمين a.kharroubi@ens-laghouat.dz

prominent theories, one of which our old scholars cared about and presented important studies in it, which is the theory of instituting and using, and another theory that Westerners recently took care of and branched out from it many studies, which is the theory of language and speech, and we will see through this research that the ancient Arabic theory is no less than The importance and maturity of what modern studies presented, represented by what was presented by its pioneer and founder, the linguist Ferdinand de Saussure, and those who came after him, The research problem was represented in these questions: To what extent is the theory of instituting and using compatible with the theory of language and speech? What was the impact of each of them on the system of linguistic studies? What are the cognitive foundations on which these two theories were founded? We adopted the descriptive and analytical approach in our research, as well as the comparative approach, because our research is a comparative study between two theories. The result of our research was that we achieved great agreement between the two theories in terms of concept and scientific impact in linguistic studies.

Keywords: instituting, using, langue, parole, system.

مقدمة:

لكل أمة تراثها الذي يشكل ثقافتها وتاريخها وجوهر هويتها، ومن أهمه التراث اللغوي، والذي أنجزت فيه أمتنا إنجازا يثير الدهشة والإعجاب، وهو إنجاز ضخم في مادته، متنوع في دراساته ونظرياته، قائم على منهج علمي محكم، ولذلك رأينا أن ندرج بحثنا البسيط هذا ضمن مشروع البحث في التراث بغية تقديم ما ينفعنا وينفع غيرنا في حاضرنا ومستقبلنا، وحتى لا تذهب جهود علمائنا اللغوية في مهب دعوات الهدم الهوجاء التي تدعو إلى تجاوز التراث العربي، واستبدال الدراسات اللسانية الحديثة به، وكأنها تستطيع أن تحل محله أو تغني غناءه، وهيهات هيهات!! إذ لا شك عندنا أن الدراسات التراثية العربية كانت رائدة وأصيلة تضاهي في دقتها وعمقها ومتانتها العلمية وفائدتها المعرفية ما وصلت إليه النظريات اللسانية الحديثة بعد قرون من الزمن، بل

وتفوقها في نواح عديدة، ويكفينا دليلا على ذلك أنها ما تزال قائمة، وما تزال تعطي ثمارها، وما تزال تجيب عن إشكالات معاصرة إلى اليوم.

وإن أبرز ما نجده في تراثنا اللساني من قواعد تأسيسية لصرح علوم اللغة، تلك النظرية الرائدة، وهي: نظرية "الوضع والاستعمال"، والتي ظهرت بوضوح لدى النحاة واللغويين والأصوليين والبلاغيين في زمن مبكر، ويمكننا القول دون تردد إن هذه النظرية كانت إحدى أهم الأسس التي قامت عليها الدراسات اللسانية العربية: كالنحو، والمعاجم اللغوية، والبلاغة، والنقد، وهي تجاري في الأهمية أبرز الثنائيات التي جاء بها سوسير وهي: "اللغة والكلام"، فإنه لا يخفى على الباحث أن دراسة اللسانيات الحديثة لا تتم إلا عبر المرور بتلك الثنائيات المتقابلة التي جاء بها دي سوسير في محاضراته، وهي ثنائيات من شأنها أن ترسم المنهج الذي ينبغي أن تعتمد عليه دراسة اللغة عنده، وأن تحدّد موضوع علم اللغة، فقد قامت البنيوية على التفريق الصارم بين طرفي كل ثنائية، فلا بد منهجيا من التمييز بين: اللغة والكلام، والدّال والمدلول، والوصفي والتاريخي، والزمني والتزامني، والاستبدالي والتركيبي، والاجتماعي والفردي.

والذي يهمنا من تلك الثنائيات في بحثنا هذا هي: ثنائية "اللغة والكلام"، والتي أولتها الدراسات البنيوية اهتماما بالغا ابتداء من سوسير وتلامذته، ولا شك أن هذا الاهتمام لم يكن من قبيل الترف أو الصدفة، وإنما هو بمنزلة وضع حجر الأساس في التأسيس لمنحى جديد ارتضاه سوسير ومن وافقه لدراسة اللغة، وهو منحى لطالما ادّعى لنفسه الجدّة والوجاهة والتميّز، وانتهاج الخط العلمي والموضوعي في الدرس اللغوي، والذي حادت عنه، على رأيه، الدراسات السابقة منذ عهد اليونان إلى قُبيل العصر الذي ظهر فيه سوسير، أي القرن التاسع عشر، ومجرد ذكر هذا القرن سيحيل الذهن مباشرة إلى مفهوم العلمية والموضوعية الذي شاع وانتشر مع بروز المنهج التجريبي آنذاك في علوم المادة (كالفيزياء، وعلم الأحياء) والذي يعتمد في الأساس على الملاحظة والتجريب بغية رصد مكونات الظاهرة المادية والعلاقات التي تجمع بينها والأسباب والقوانين الحتمية العامة التي تحكمها، ثم تسرب هذا المنهج بعد ذلك إلى بعض العلوم الإنسانية ممثلا في علم الاجتماع مع إميل دوركايم، وعلم النفس مع سيغموند فرويد، اللذين حاولا وضع علم يقارب في الإحكام والتماسك والدقة علومَ المادة وينهج نهجها للوصول إلى مثل نتائجها. فلماذا إذًا لا يصل مثل هذا المنهج إلى الدرس اللغوي، وأمرُه لا يختلف عن أمر النفس والاجتماع. ولست أستبعد أن اكتشاف قوانين التعالق والتماسك العضوي بين الظواهر في علوم الطبيعة وعلوم الاجتماع والنفس قد أوحى إلى سوسير بفكرة البنية. لقد كان الاتجاه العام للعلوم يسير من النظرة الذرّية التجزيئية إلى النظرة الكلية الشمولية التي ترصد الأنساق والبنيات، إذ كلما اتّسع اكتشاف العلاقات والترابط بين عناصر الظاهرة، ازداد معه الإيمان بفكرة البنية، لقد كانت كل المعطيات التي قدمتها العلوم الحديثة منذ القرن السابع عشر إلى بداية القرن العشرين تبشر بظهور هذا الاتجاه البنيوي الذي سرعان ما اكتسح مختلف المجالات العلمية.

وطبعا نحن نقول هذا الكلام على سبيل التسليم للذين يقولون إن أفكار سوسير لم يسبقه إليها أحد من قبل، وإلا فالأمر ليس بهذه البساطة، فقد رأينا بعض الباحثين الغربيين مثل جورج مونان، وجاكبسون، وبنفنيست يفندون هذا الزعم ويعتبرون سوسير مجرد ناقل لأفكار سابقة ليس له فيها سوى الشرح والتنظيم [1]، ولم يسلّموا بما ساقه سوسير في محاضراته من انتقادات وادعاءات حول الدراسات اللغوية التي سبقته في العالم الغربي، وعَدُّوا صنيع سوسير هذا محاولة للتقليل من قيمة تلك الدراسات السابقة التي لولاها لما كان لاسم سوسير شأن يُذكر. وما صنعه سوسير مع تراثه الغربي القريب والقديم من تقزيم وتحقير، صنعه بعض باحثينا من العرب، مجاراة لسوسير، مع تراثنا العربي القديم، وأكثرهم لم يطلع عليه بصورة كافية تسمح له بالحكم عليه سلبا أو إيجابا، وإذا كانت لسانيات سوسير تطورا طبيعيا لجهود حثيثة سبقته، فما حالنا نحن مع تراثنا، وإذا افترضنا أن سوسير كان محقا بشأن انتقاد تراثه الغربي، فهل ينطبق ذلك على التراث العربي [2] ؟

أهمية البحث: تكمن أهمية البحث في كونه قد تطرق إلى نظرية عربية كانت أحد أهم الأسس التي قامت عليها الدراسات اللغوية والنحوية، وما انبنى على هذه الدراسات في المجالات المعرفية الأخرى التي لها صلة بها، وكذا في رصد التشابه بين هذه النظرية العربية ونظرية اللغة والكلام في الدراسات اللسانية الغربية.

أهداف البحث: يسعى بحثنا إلى تحقيق جملة من الأهداف أهمها:

- التعرف على نظرية الوضع والاستعمال من خلال العودة إلى أهم المصادر التراثية,
- بيان أثر نظرية الوضع والاستعمال في الدراسات اللسانية القديمة كأساس قامت عليه تلك الدراسات.
- إثبات التوافق بين هذه النظرية القديمة ونظرية اللغة الكلام الحديثة عن طريق مقارنة علمية منهجية.
- لفت الانتباه القارئ إلى فوائد التراث العربي، وتحفيزه للعودة إليه واستخراج كنوزه.

مشكلة البحث: ينطلق بحثنا من مشكلة يمكن صياغتها من خلال هذه الأسئلة: ما مدى توافق نظرية الوضع والاستعمال مع نظرية اللغة والكلام؟ وكيف كان أثر هذه النظرية في الدراسات اللغوية؟ وما هي الأسس المعرفية التي تأسّست عليها هاتين النظريتين ؟

منهج البحث: اقتضى بحثنا أن نعتمد على المنهج الوصفي التحليلي، وكذا المنهج المقارن لأن بحثنا هو عبارة عن دراسة مقارنة بين نظريتين.

مؤاخذات سوسير وانتقاداته:

لقد جرت عادة من يريد التجديد في علم ما أو مجال ما أن يقدم بين يدي تجديده انتقادات أو مؤاخذات على ما سبقه كتمهيد تأسيسي لما يريد أن يطرحه من جديد، وهذا ما فعله سوسير في محاضراته حين أراد تقرير مذهبه الجديد في دراسة اللغة، وينبغي أن نورد ما ذكره مما كان سائدا قبله، مع أهم الانتقادات التي وجهها إليه باختصار، حتى تتضح لنا بعض المنطلقات التي انطلق منها.

ذكر سوسير في محاضراته أن العلم المشتغل باللغة مر بثلاث مراحل[3]:

1- الاهتمام بمعرفة القواعد اعتمادا على علم المنطق، بهدف وضع قواعد معيارية للتمييز بين الصحيح والخطأ في استعمال اللغة، وقد بدأ ذلك مع الإغريق وأخذه عنهم الفرنسيون، ويعيب سوسير على هذا المسلك أنه اعتمد على المنطق لا على اللغة المدروسة ذاتها، وأنه جعل هدفه وضع معايير للصواب والخطأ لا الدراسة العلمية للغة[4].

2- الدراسات الفيلولوجية: وهي التي تهتم بدراسة النصوص القديمة عن طريق شرحها وتصحيحها وفك شفراتها ورموزها، وتحقيق الوثائق والمخطوطات القديمة بغية نشرها. ويأخذ سوسير على هذه الدراسات أنها اعتمدت على النصوص المكتوبة لا المنطوقة، وأنها حصرت دراستها في اللغة الإغريقية واللغة اللاتينية فقط دون غيرها[5].

3- فقه اللغة المقارن: وهو الذي يهتم بالمقارنة بين اللغات التي تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة لإثبات أصلها المشترك أو اللغة الأم التي انحدرت منها. ويعيب سوسير عليه: إهماله البحث في طبيعة الموضوع الذي ينبغي البحث فيه، وهو اللغة في ذاتها، وإهماله الجانب التاريخي للغة، واقتصاره على اللغات الهندية-الأوربية[6].

ثم وجّه انتقاده إلى النظرة التي تعدّ اللغة كائنا عضويا يتطور وينمو بصورة مستقلة، ويثني على مدرسة النحويين الجدد الذين كفوه مؤونة الرد عليها، ولكن هذه المدرسة النحوية أيضا لم تحلّ، في نظره، مشكلة الموضوع الذي ينبغي أن يهتم به علم اللغة[7]، وهو اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها.

ثم توجّه باللوم إلى الذين يخلطون بين علم اللغة الداخلي وعلم اللغة الخارجي، فيركزون على الخارجي ويعتمدون على علوم ليست علوما لغوية في الأساس كالأنثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم وظائف الأصوات، والتاريخ، واعتبرها خارج مجال علم اللغة لأنها تمس الجانب الخارجي للغة لا الداخلي، مع إقراره بأن علم اللغة قد يستفيد من هذه العلوم ويتقاطع معها في بعض جوانب الدرس اللغوي[8]. ومما تجدر الإشارة إليه هنا، وهو في غاية الأهمية، أن سوسير والبنيويين بصورة عامة يعتقدون أن النظام، بوصفه علاقات وبنية مجردة، ثابت لا يتغير، بل بعضهم قال بلازمنيته أي أزليته[9]، وهذا يفسر لنا حقيقة تشبيه سوسير وأتباعه نظامَ اللغة بالشطرنج.

ويبيّن سوسير أن اللغة ليست مجرد كلمات أو ألفاظ تدل على معانٍ أو أفكار، ليؤكد بذلك فكرته القائمة على أن اللغة نظام[10] يشمل مجموع العناصر اللغوية والعلاقات التي تربط بينها[11]، أي هي نسق من العلامات.

وينتقد سوسير الذين يعتمدون على المكتوب في دراسة اللغة، بل ويقدمونه على المنطوق، وهذا بالنسبة إليه خطأ فاحش يؤدي إلى نتائج خاطئة، لأن الأصل في الكلام هو النطق بالأصوات والتلفظ بها، أما الكتابة فما هي إلا رموز تنوب عن اللفظ ولا تتطابق معه، ولذلك هي مضللة وتحجب الدارس عن بعض الحقائق اللغوية[12].

ويرفض سوسير أن تكون الكلمات دوال تشير مباشرة إلى أشياء، إذ له رأي آخر يجعل الكلمة عبارة عن علامة تتكون من دال: وهو الصورة السمعية أو الانطباع الصوتي الذي يتركه اللفظ في الذهن. ومدلول: وهو

الفكرة أو المفهوم أو التصور الذهني للأشياء الذي يحيل إليه الدال، وأما الشيء الخارجي نفسه المشار إليه أو المدلول عليه فيقع خارج العلامة اللغوية. ويؤكد سوسير أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية تقوم على التواضع والاصطلاح، ولا يمكن أن تكون طبيعية أو ضرورية[13].

وانتفض سوسير ضد الذين يركزون على الدراسة التاريخية (الدياكرونية) التي ترصد التطورات التي تمر بها لغة معينة، ويهملون الدراسة التزامنية (السانكرونية) التي تعتمد على المنهج الوصفي، أي دراسة اللغة وصفا وتحليلا واستنتاجا في مرحلة زمنية محددة، ويَعدّ هذه الأخيرة هي الدراسة العلمية التي يجب اعتمادها[14].

وانتقد سوسير التقسيمات التقليدية التي تفصل بين أبواب لغوية لا ينبغي الفصل بينها، كالفصل بين الصرف والنحو والمعجم، واعتبارِ كل منها مستقلا عن الآخر، ويرى أن هذا الفصل هو من نتائج الغفلة عن كون اللغة نظاما تتشابك وتترابط فيه جميع العناصر والمكونات[15].

وكان سوسير بعد إيراده لكل واحد من هذه الانتقادات، يورد رده وتصويبه لما انتقده ليؤسس بذلك المنهج والمبادئ التي قامت عليها مدرسته البنيوية، وبالطبع فإن من أهم الأمور التي ركز عليها في انتقاداته عدم التمييز بين اللغة والكلام، وبما أن بحثنا متعلق بثنائية اللغة والكلام فسوف نقتصر عليها، ونبين كيف نظر سوسير إلى هذه الثنائية، وكيف استخدمها في تحديد الإطار المنهجي لعلم اللغة. ثم ننتقل بعد ذلك إلى نظيرتها في تراثنا العربي.

اللغة والكلام لدى دي سوسير:

يميّز سوسير بين ثلاثة مصطلحات، وهي: اللغة العامة (le langage)، واللغة المعينة (la langue)، والكلام (la parole) [16]، ويجعل هذا التمييز وما يترتب عليه مفصلا حاسما بينه وبين الدراسات اللغوية القديمة، ومبدأ جوهريا تستند عليه نظريته اللغوية.

اللغة العامة: هي اللغة بكونها ظاهرة إنسانية عامة[17]، أي هي ذلك الكيان اللغوي[18] الذي يضم جميع ما يتعلق باللغة الإنسانية بصورة عامة، ويجعلها سوسير بمعنى الملكة، ويصفها بأنها غير خاضعة للتصنيف، وبأنها غير متجانسة ومتعددة الجوانب: كالجانب الفيزيائي (الصوت المادي)، والجانب الفسيولوجي (الوظيفي)، والجانب السيكولوجي (النفسي)[19].

اللغة المعينة: مثل العربية أو الإنجليزية...، وهي جزء من اللغة العامة، و"نتاج اجتماعي لملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد أفراده على ممارسة هذه الملكة"[20]، ويصفها سوسير بأنها قابلة للتصنيف، وبأنها كيان موحد هو عبارة عن نظام[21]، أي نظام من العلامات، وإذا كان اللسان فطريا فإن اللغة المعينة مكتسبة يكتسبها الإنسان في مجتمعه وتستقر في دماغه بعد عدد لا يحصى من الخبرات اللغوية التي تؤخذ عن طريق سماع الكلام[22]، فاللغة بهذا المعنى هي جزء من الوعي الجمعي أو هي علامات مختزنة في العقل الجمعي كما يُسمّى في علم النفس وعلم الاجتماع[23]، واللغة إنما يكتسبها الفرد بصورة سلبية أي دون أن يبذل جهدا فكريا مقصودا، وهي عبارة عن ذخيرة من الانطباعات اللغوية الذهنية، وهذا المخزون اللغوي

موجود بصورة كاملة في أذهان جميع أفراد المجتمع، فاللغة غير كاملة عند الفرد الواحد[24]، إنها ذلك الجانب الاجتماعي السيكولوجي في جميع صفاته، وقد مثّل لها سوسير بهذه المعادلة: 1 + 1 + 1 + 1... = النمط الجماعي[25].

وينتقد سوسير بعض التصورات السابقة التي يراها مجانبة للصواب، ومن ذلك اعتقاد بعض الناس أن اللغة هي "عملية لتسمية الأشياء ليس إلا، أي إنها قائمة من الألفاظ كلّ لفظة تدل على الشيء الذي تسميه"[26]. إن هذا التصور، حسب سوسير، بعيد عن حقيقة اللغة.

والعلامة اللغوية كما يتصورها سوسير هي نتاج اجتماع مكونين اثنين: الدال والمدلول، ويفسر هذين المكونين بالصورة الصوتية والفكرة: **فالدال** هو: الصورة الصوتية، ولا يقصد بالصورة الصوتية الصوت الفيزيائي المادي بل المقصود صورته السيكولوجية التي تنطبع في الدماغ[27]، أي ذلك الانطباع أو الأثر الذي يتركه الصوت اللغوي في الذهن، والدليل على أنها نفسية هو حديث أحدنا في نفسه بدون تحريك شفتيه[28].

والمدلول: هو المفهوم أو الفكرة النفسية الذهنية المجردة التي يرتبط بها الدال، ومنه فإن العلامة هي كيان نفسي يتألف من وجهين أو جانبين، هما الدال والمدلول، وتربط بين هذين علاقة التداعي أو الإيحاء، أي أنّ ورود أحدهما أو حضوره يقتضي ورود الآخر أو حضوره، فالفكرة تستدعي الدال، والدال يستدعي الفكرة. ومن ثم فإن الدال إنما يحيل إلى فكرة الشيء الخارجي أو مفهومه أو صورته الموجودة في الذهن، ولا يحيل إلى الشيء مباشرة، فالعلامة اللغوية هي اقتران ذهني بين صورة صوتية وفكرة تشير إلى شيء، ويظل هذا الشيء خارج العلامة اللغوية[29].

وطبيعة العلاقة بين الدال والمدلول، لدى سوسير، اعتباطية تقوم على محض التواضع والاتفاق بين واضعي اللغة، أي أن من وضعوا اللغة اصطلحوا على جعل هذه الكلمة دالة على هذه الفكرة دون أن يكون بين الكلمة والفكرة صلة طبيعية أو علاقة يقتضيها العقل، ومقتضى ذلك أنه لا يمكننا تعليل تسمية الأخت بلفظ "أخت"، إذ لا صلة يمكن أن نلمسها بين تعاقب أصوات أ- خ - ت والمسمى نفسه الذي هو الأخت[30].

ويؤكد سوسير في مواضع عديدة من محاضراته أن موضوع علم اللغة هو اللغة ذاتها، والهدف من ذلك هو الوصول إلى الخصائص والقواعد التي تحكم اللغة كظاهرة إنسانية عامة[31]، ومن ثم فعلى الدارس أن يدرس ما استطاع من اللغات المختلفة للوصول إلى هذا الهدف، سواء كانت اللغة المدروسة بدائية أم متمدنة، قديمة أم حديثة، فصيحة أم غير فصيحة، منطوقة أم مكتوبة، مع تقديمه المنطوق على المكتوب إن أمكن[32].

الكلام: يعرفه سوسير بأنه: "الجانب التنفيذي.... فعل فردي وهو عقلي مقصود"[33]، فهو عملية فردية صوتية مقصودة تتعلق بإرادة المتكلم، أي هو تجلٍّ فعليٌّ فردي للغة معينة، فالكلام فعل مقصود يعتمد على رغبة المتكلم وإرادته وعلى الأفعال الصوتية، ويصفه سوسير بأنه غير متجانس، وبأنه سيكوفيزيائي (نفسي فيزيائي) ومعنى كونه سيكولوجي أو نفسي أنه يستند في إحداثه ووجوده إلى الجانب النفسي وهو اللغة، ومعنى

كونه فيزيائي أنه ممارسة صوتية مادية تتمثل في الصوت المنطوق، وبهذا يبين سوسير أن اللغة والكلام مرتبطان يعتمد بعضهما على الآخر، فاللغة هي الأساس النظري المرجعي للكلام، والكلام ضروري لاكتساب اللغة[34].

الوضع والاستعمال في التراث اللغوي العربي:

قبل الخوض في هذا المبحث علينا أن نتفق على أننا لا نريد أن نقف عند المصطلحات المستعملة في تراثنا، فليس من الضروري أن نجد فيه مصطلحي: "اللغة والكلام" بهذه الألفاظ نفسها التي استعملها سوسير ! فنحن بصدد الحديث عن مفاهيم وأفكار، ولسنا نناقش اصطلاحات لفظية.

وحري بنا أن نؤكد عن يقين أنّ الدراسات النحوية، ولاسيما الأولى، كانت علمية موضوعية تستند إلى استقراء الوقائع اللغوية الفصيحة الموجودة بين أيديهم، والمتمثلة في القرآن الكريم، والمسموع من كلام العرب الفصيح، واستخراج قواعدها والنظام الذي يحكمها، وليس هذا مجرد ادعاء، إذ بالنظر إلى كتبهم سيتبين بوضوح منهجهم في دراساتهم، وليأخذ الباحث على سبيل المثال: "الكتاب" لسيبويه (180ه) فله فيه مقنع وكفاية لمعرفة ذلك[35].

وحين نعود إلى التراث العربي فإن أول ما يطالعنا من كتب النحو: كتاب سيبويه الذي يعد المصدر الأول في الدراسات النحوية، مع ما يحويه من دراسات أخرى لغوية وبلاغية، ثم تأتي بعده تلك المؤلفات الرائدة المتنوعة في علوم اللغة. وسيبويه لم يستعمل مصطلح الوضع والاستعمال، وإنما استعمله النحاة بعده ابتداءً من ابن السراج (316ه) وتلامذته، وابن السراج هو أول من استعمل لفظ "وضع" أو "وضع اللغة" بالمعنى الاصطلاحي[36]، ثم جاء أبو القاسم الزجاجي(340ه) وأطلق مصطلحي "الوضع والاستعمال"[37]، وأما سيبويه فاستعمل مصطلح "أصل الكلام" ويقابله "الكلام"، ومثال ذلك قوله: "واعلم أنهم مما يحذفون الكلم **وأصله في الكلام** غير ذلك، ويحذفون ويعوضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي **أصله في كلامهم** أن يستعمل حتى يصير ساقطا... فمما حُذف **وأصله في الكلام** غير ذلك: لم يَكُ ولا أدرِ"[38]، فأصل الكلام عند سيبويه هو النموذج الأصلي الذي عليه يجري القياس، أو هو ما يتفق مع "الوضع" في اصطلاح المتأخرين، وسيبويه يقابل أصل الكلام بالكلام، وبخاصة حين يلحظ شيئا من التصرف في أصل الكلام، أو الاختلاف بين الأصل الوضعي والكلام المستعمل في مخاطباتهم، والأمثلة كثيرة عند سيبويه في استعمال "أصلِ الكلام" في مقابل "الكلام" المستعمل، مما يؤكد، بدون أدنى شك، حضور فكرة التفريق بين الوضع والاستعمال (أو اللغة والكلام) في ذهن سيبويه.

وإذًا فما يسميه سيبويه "الأصل في الكلام"، هو ما اصطلح عليه النحاة بعده باسم "الوضع"، وما يسميه "الكلام"، هو ما اصطُلح عليه بعده باسم "الاستعمال"، وحين يقول سيبويه "الأصل في الكلام" فهو يعني به أن يجيء الكلام على مثال من مُثل العربية الأكثر استعمالا، والمطّرد الذي عليه القياس، والذي به تثبت القاعدة، أي أن يكون موافقا للنظام اللغوي، جاريا في مجاري أحكامه وسننه، وهو ما نسميه اليوم "اللغة"، ومن هنا يصح أن نقول إن مفهوم "أصل الكلام" عند سيبويه أو "الوضع" عند المتأخرين من النحاة واللغويين

والأصوليين، يتطابق مع مفهوم "اللغة" بمعناها اللساني الحديث، وأن نقول إن مفهوم "الكلام" عند سيبويه أو "الاستعمال" عند من جاء بعده، يتطابق مع مفهوم "الكلام" كما بيّنه سوسير ومن سار على نهجه.

ومصطلح "اللغة" عند سيبويه مرادف في مفهومه لمفهوم "اللسان"، واللسان هو "مجموع ما يتكلم به قوم وطريقتهم في الكلام... ويستعمل سيبويه لفظة "لغة" في قوله: "كُلّموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم"، وصارت كلمة "اللغة" بهذا المعنى مرادفة لكلمة "اللسان" انطلاقا من هذا الاستعمال في نهاية القرن الثاني"[39].

واستمر استعمال "اللغة" بهذا المفهوم إلى زمن الجاحظ، ثمّ تغيّر عند ابن السراج ومعاصريه، وصار يستعمل بالمفهوم المقابل لمصطلح "الكلام"[40].

وأمّا مصطلح كلام فقد استعمله سيبويه، حسب الحاج صالح، على ثلاثة معانٍ[41]:

1- الكلام بمعنى المصدر أو اسم الجنس، وذلك كقولهم: كلام العرب، كلام العجم، وهو قريب مما تدل عليه لفظة "لسان" الموافقة للفظة "langage" الفرنسية، وموافقة للفظة "اللغة" بمعناها القديم.

2- الكلام بمعنى الخطاب، وهو الكلام الحاصل بين المتخاطبين، وهو يطابق لفظة "discours" في اللغات الأجنبية.

3- الكلام بمعنى الجملة المفيدة، وقد استعمله سيبويه، ثم استقر عند من جاء بعده من النحاة المتأخرين، وأول من استعمل مصطلح "جملة مفيدة" هو المبرّد (286هـ) في كتاب "المقتضب".

ويطلق سيبويه على خروج الكلام عن الأصل الموضوع له، مصطلحات خاصة مثل: "الاتساع" و"الإيجاز" و"الاختصار"، وكلها مصطلحات يفهم منها، مع الأمثلة التي تبينها عنده، أن للكلام أصلًا هو الوضع الأول للغة، وأداءً فعليًا هو الاستعمال الذي يخضع للعوامل المصاحِبة للكلام، وللظروف والأحوال المقامية التي تحيط به، وهذه الأحوال المقامية السياقية هي التي تجعل الاتساع أو الاختصار جائزا، ومن شأنها أن تفسر وتبيّن القصد من الكلام، وبخاصة إذا كان الكلام قد جاء على غير وضعه اللغوي.

ولنأخذْ بعض النماذج من الكتاب الأوّل في النحو، وهو كتاب سيبويه، فقد عقد سيبويه بابًا سمّاه: "هذا باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام، والإيجاز والاختصار"[42]، ثم أخذ في شرح مراده من ذلك مستشهدا عليه بشواهد من القرآن الكريم وكلام العرب، فقال: "فتقول: صِيد عليه يومان، وإنما المعنى: صِيد عليه الوحش في يومين، ولكنه اتسع واختصر... وممّا جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى جدُّه: "واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها"، وإنّما يريد: أهل القرية، فاختصر... ومثله: "بل مكر الليل والنهار"، وإنّما المعنى: بل مكركم في الليل والنهار "[43].

والمثال في الآية الأولى الذي أورده سيبويه يُدرجه البلاغيون ضمن ما يسمى بالمجاز المرسل الذي علاقته المحلّية، وفي الآية الثانية ضمن المجاز العقلي الذي يقوم على علاقة الظرفية الزمانية. وسيبويه يجعل هذا الأمر من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاؤه، قال:" وهذا الكلام كثير، منه ما مضى، وهو أكثر من أن أحصيه"[44].

ولم يترك سيبويه الكلامَ على الاتساع والإيجاز دون ضوابط تحكمه، فهو مشروط عنده بعلم المخاطَب، وأمنِ

اللّبس، ودلالةِ السياق أو المقام عليه، وكثرتِه في كلامهم[45]... ونحوها من الضوابط التي يبدو أنّها تركز على ضرورة عدم التشويش على وظيفة التواصل والإفهام والبيان في الكلام، ولا شك أن سيبويه قد جاء بهذه الضوابط بالنظر إلى الكلام على أنه "خطاب" له سياقه وله مقاصده.

ومنه يمكننا أن نفهم أنّ النحاة قد بنَوْا درسهم على أساس أنّ للغة نموذجًا مثاليًّا تامًّا (النظام)، استقراه النحاة من مجموع الشواهد اللغوية الفصيحة، ووضعوا له قواعد وأصولًا، ثمّ لاحظوا أنّ المتكلّم في استعماله للغة قد يتصرّف، وفق اعتبارات متعدّدة، في ذلك النموذج: اتساعًا أو اختصارًا أو إيجازًا أو حذفًا أو إضمارًا أو تخفيفًا أو تقديمًا أو تأخيرًا... إلخ، ونستطيع أن ندخل في هذا المضمار الضرورات الشعرية أيضا، فصار هذا الاستعمال صورة للغرابة والخروج عن النموذج أو "أصل الكلام" باصطلاح سيبويه أو "الوضع" باصطلاح المتأخرين بعده، وهذا الخروج له قواعده أيضا، وهو لُبّ البحث البلاغي، أو هو الإرهاص الذي مهّد، على الأقلّ، للبحث البلاغي فيما بعد لدى البلاغيين، وهذا يتفق تمامًا مع الدراسات الألسنية الحديثة التي تميّز بين اللغة بوصفها نظامًا مجرّدًا مشتركًا، والكلام بوصفه أداءً فعليًّا فرديًّا يتأثّر بالظروف والتأثيرات التي تصحبه زمنَ أدائه، والتي تعدّ عوامل تداولية تسوّغ مخالفة النموذج أو المعيار، بحيث تغدو هذه المخالفة صورة من صور التعبير الأدبي أو الانزياح في الكلام.

ويجب ألّا يغيب عن أذهاننا أن الدراسات النحوية كانت تهتم في الأساس بوضع القواعد المشتركة التي تحكم اللغة، باعتبارها معايير مجردة يتوخاها المتكلم ليكون كلامه منسجمًا مع طبيعة اللغة العربية، فيستقيم كلامه على سننها، ويسلم من الخطأ والفساد الذي يُخرج العربية عن ناموسها، ويكونُ سببًا في اختلال نظام التواصل بين أفرادها، لأنّ طبيعة تلك القواعد والمعايير أنّها شائعة بين جميع الناطقين بالعربية، وبهذا الشيوع والاشتراك فقط يمكنهم التواصل والتفاهم، ولذلك عندما يشيع خطأ مّا لدى المتكلّمين، يحلّ محلّ القاعدة بذلك الشيوع، وقد قيل: "خطأ شائع خير من صواب مهجور"، وهم يقصدون أنه خير لهم في التواصل والتفاهم، أمّا بالنسبة إلى اللغة العربية نفسها وما تقتضيه دراستها، فلا خير في الخطأ، بل يجب على المتخصّصين تصحيحه والتنبيه عليه.

ولكون الدراسات النحوية هي الأساس، كان من الطبيعي أن تسبق الدراساتُ النحوية دراساتِ البلاغة، لأنّها ترصد النّظام الكلّيّ الذي تُبنى عليه اللغة، والذي تتحقق به وظيفة التواصل والتفاهم، أمّا البلاغة فقد تجاوزت ذلك، دون أن تستغني عنه، إلى طرائق الاستعمال وأساليب القول في مختلف مستوياتها وأشكالها، ولسنا نختلف مع الذين قالوا إنّ أول وعي باللغة كان في جانبها البلاغي؛ لارتباط البلاغة بالمميَّز والخارج عن المألوف الذي يستدعي النظر؛ إذ لا يستدعي المألوف (اللغة المشتركة) أي حاجة إلى تأمله أو الوعي به[46]، ولكن هذا الرأي نظريّ وعامّ، ويتعلّق بالوعي الأوّلي للغة الأدبية، ونحن حديثنا هنا عن الدراسة العلمية المعيارية للغة العربية خصوصًا، وعن البحوث والدراسات التي نشأت حولها، والتي تتصل بعوامل معينة تتمثل في ظهور اللّحن والفساد في العربية التي هي لغة الوحي والنص المقدّس، ولغة التواصل أيضا، والفرق

بينهما أنّ المخالفة التي تتّصل بالوعي البلاغي كانت تتعلّق بكسر المألوف والعادي مع المحافظة على النظام والمعيار اللغوي، فالشعر يخرق النظام اللغوي دون أن يفسده، أي يتلاعب بالنظام داخل النظام وفي إطار المسموح به، أمّا المخالفة التي استدعت الدرس النحوي فكانت مرتبطة بكسر النظام اللغوي وإفساده، وهو الأساس الذي تتوقّف عليه عملية التواصل والتفاهم، فكان لا بدّ إذًا أن يكون انطلاق الدراسة من الأساس، أي من النظام اللغوي الذي تقوم عليه اللغة ويتحقق به التواصل، أي النظام النحوي.

الاستعمال/الكلام بين التراث العربي والنظرية اللسانية الحديثة:

لقد سبق أن بينا من محاضرات سوسير أن سوسير قصر الدراسة العلمية على اللغة دون الكلام؛ لأن الكلام في نظره غير متجانس، ولا يمكن ضبطه وإخضاعه للدرس العلمي، ولذلك أقصاه من مجال الدراسة، ولكن الذين جاؤوا بعده صرفوا اهتمامهم إلى الكلام، وجعلوه موضوع دراستهم، وأخضعوه للملاحظة والبحث، ورصدوا سننه ومجاريه، واستخلصوا القواعد التي تحكمه مقرونة بأحوال الاستعمال ومقاماته، ومن أبرز من سار في هذا الاتجاه هم الباحثون في علم التخاطب أو التداولية التي اعتنت بظروف التلفظ وأحوال الاستعمال وقصدية المتكلم...، أي نظرت إلى الكلام على أنه "خطاب" يخضع للمقام أو السياق، ويتكيف مع الظروف الخارجية التي تحيط به، وأكد هؤلاء أن قصد المتكلم لا يمكن الوصول إليه وتحديده إلا بالنظر إلى الكلام في سياقه وظروفه التي قيل فيها.

وبالعودة إلى تراثنا، وبالتحديد سيبويه وعلماء البلاغة، سنرى الدراسة النحوية تسير جنبا إلى جنب مع الدراسة البلاغية، نعم قد كان السبب الأساسي في نشأة الدراسات النحوية هو ظهور اللّحن والفساد في العربية التي هي لغة الوحي والنص المقدّس، ولغة التواصل أيضا، وهي الأساس الذي تتوقّف عليه عملية التواصل والتفاهم، فلم يكن بدّ من أن تبدأ الدراسات النحوية، في معالجة هذا الطارئ. ولكن مع ذلك امتزج البحث النحوي بالبحث البلاغي في أوّل العهد بصورة ملتبسة، وذلك لسببين اثنين:

الأول: هو أنّ انطلاقهم من القرآن والشعر في الدراسة والاستشهاد، جعلهم يلتفتون إلى تلك الخصائص الفنية والجمالية التي تميّز بها كلٌّ منهما[47]، والتي فرضت نفسها عليهم بوصفها خاصية لا تنفك عن القرآن والشعر، والتي كانت ماثلة أمامهم بصورة دائمة، فلم يجدوا مناصًا من صرف العناية إليها، ولذلك وُجدت العديد من مباحث البلاغة في كتب النحاة الأوائل، مثل: "الكتاب" لسيبويه، و"معاني القرآن" للفراء، و"الكامل" للمبرّد، و"معاني القرآن" لثعلب، فيبدو أنّ تلك المباحث البلاغية كانت تصادفهم في أثناء البحث فيسجلونها ضمن ما يشاكلها من أبواب النحو كالحذف والإضمار والإيجاز والاتساع... إلخ.

الثاني: هو عدم ربط النحاة المتأخرين بين المعنى التركيبي، والغرض أو قصد المتكلم في المقام الخطابي، ويبدو أن البلاغيين قد لاحظوا هذا القصور في علم النحو فسارعوا إلى وضع قواعد تفسّر الظواهر البلاغية التي أهملها النحاة المتأخرين في هذه المباحث، كأغراض الخبر، وأغراض الإنشاء: الأمر والنهي والاستفهام... وأغراض الفصل والوصل، وأغراض التقديم والتأخير، وكذا ما يتصل بمباحث الحذف والاختصار... ونحوها،

وهو ما يدرج ضمن "علم المعاني" لدى البلاغيين. وهذا كله من الفراغ الذي خلّفه علم النحو في دراساته اللسانية، والذي بادرت البلاغة إلى ملئه وإثرائه، والملاحظ أنّ البلاغيين قد اهتموا في هذا الصدد اهتمامًا بالغًا بالمقام والحال كعوامل تداولية لا يُستغنى عنها في تفسير تلك المباحث في انزياحها التركيبي والدلالي، لأنّ مفهوم الغرض عند البلاغيين يشير إلى البعد الخطابي التداولي في الكلام. ومرتكز الاختلاف، عمومًا، بين النحاة المتأخرين والبلاغيين هو أنّ النحاة قد انصب اهتمامهم على الوظيفة التواصلية المعيارية في اللغة، وأمّا البلاغيون فقد اهتموا بالوظيفة الأدبية الانزياحية في منحيْها: التخييلي والتداولي.

ويعدّ عبد القاهر الجرجاني (471هـ) من أبرز العلماء الذين حاولوا الجمع بين النحو والبلاغة، وذلك في نظرية "النّظم" التي اشتهر بها؛ إذ نجده يجمع بين توخّي معاني النحو كنظام للغة، والذي به تتحقق الاستقامة وعليه تتوقف عملية التواصل والتفاهم، وبين طرق الاستعمال كأداء يخضع للخواص التعبيرية والمعاني النفسية والأحوال المقامية التداولية، أي التعبير عن معانٍ نفسية في مواقف تداولية، وهو ما يحقق التفرّد النوعي والتميّز الأسلوبي بين كلام وآخر، فنظرية عبد القاهر فيها نوع من الشمول الذي يراعي شرط الاستقامة والسلامة في الوقت نفسه الذي يبحث فيه عن الميزة البلاغية والتفرّد الأسلوبي.

وقد فهمنا من كلام عبد القاهر أنّ النظم مستويان اثنان: نحوي وبلاغي، فيقول عن المستوى الأول:"اعلم أن ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجت فلا تَزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمت لك فلا تُخلّ بشيءٍ منها"[48]. ويقول عن المستوى الثاني: "وإنّما كان **أعجب**، لأنّ عمله **أدقّ**، وطريقه **أغمض**، ووجه المشابكة فيه **أغرب** "[49]، ويقول: "...لأنّا لسنا في تقويم اللسان، والتحرّز من اللحن وزيغ الإعراب... وإنّما نحن في أمور تدرك بالفِكَر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فليس درك صوابٍ درَكًا فيما نحن فيه حتى يصعب الوصول إليه "[50]. ويقول عنها جميعًا: "... أنّ الأمر على ما قلناه، من أنّ اللفظَ تبعٌ للمعنى في النّظم، وأنّ الكَلِم تترتّب في النطق بسبب ترتّب معانيها في النفس "[51]. وهو بهذا المسلك يؤكّد أيضا فكرة البحث عن سرّ البلاغة في التراكيب (النظم) لا في الألفاظ المفردة.

ونريد بهذه المناسبة أن نشير إلى قضية "المعاني النفسية" التي ترددت عند الجرجاني في مواضع عديدة من "الدلائل"، لأنّها تفيد في فهم نظرية النظم عنده، وتسلط الضوء على خلفياتها المذهبية، إذ يرى بعض الباحثين أنّ الجرجاني قد استثمر ثقافته الكلامية مستخدمًا مسألة "الكلام النفسي" التي أوردها الأشاعرة، ليثبتوا بها صفة الكلام وقدِمها في حق الله عز وجلّ، ردًّا على المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، واعتبروه أصواتًا وحروفًا مؤلّفة متتابعة، والجرجاني متكلم أشعري كما هو معلوم، وهو ما دفع به إلى أن يجعل الألفاظَ تبعًا للمعاني النفسية، ويجعل ترتب الألفاظ في النطق ناتجًا عن ترتّبها في النفس؛ لأنّ الألفاظ إنّما هي عبارةٌ تدلّ عن المعاني النفسية، أو هي مظهر خارجي لها، أو هي ترجمة لفظية تحاول مقاربتها. ولا سبيل للوصول إلى تلك المعاني إلّا بالتركيب الذي هو أساس الإفادة، ولذلك وجدنا عبد القاهر يركز على توخي معاني النحو كأساس للتواصل

وشرطٍ للاستقامة. أمّا الألفاظ، باعتبارها أجراسَ أصواتٍ أو كلماتٍ مفردة، فلا تتحقق بها إفادة المعاني التي يريد المتكلّم إبلاغها، فضلًا عن أن تكون موضوعًا لعلم البلاغة، ومنه نستطيع أن نفهم سبب إهمال عبد القاهر البحثَ فيما يتصل بالجانب الصوتي، ولم يعتبره من مظاهر البلاغة: كالجانب الموسيقي (الوزن)، وفصاحة اللفظة المفردة، والجناس والسجع، والفواصل والقوافي. وإنّ الناظر في كتاب "الدلائل" ليعلم مدى انزعاج عبد القاهر ممّن يجعل الألفاظ المفردة محلًّا للبحث البلاغي.

ويبدو لنا بعد التأمّل أنّ النّظم عند عبد القاهر هو بحث في "الأسلوب"، أي في طريقة تأليف الكلام ورصفه وترتيبه وفق المعاني التي في النفس، ووفق ما يقتضيه الحال والمقام، وهو لا يفرّق في ذلك بين شعر ونثر، ونحن لا نعتقد أنّ فكرة المعاني النفسية، التي تحدثنا عنها، كانت تسيطر على تفكير عبد القاهر، ولا أنّها أساس تنظيره البلاغي، وإنّما اهتم بها لغرض الرّد على أصحاب المذهب البلاغي اللفظي لا المذهب الكلامي المعتزلي، وشتان بين الأمرين. ولقد التبس هذا الأمر على كثير من الباحثين، إذ يقول محمد العمري: "لقد راهن عبد القاهر الجرجاني، انطلاقًا من تصوّر **أشعري** يعتبر الكلام معاني نفسية، ويعادي مقولة **المعتزلة** التي تجعله أصواتًا ومقاطع..."[52]، ويمكننا مناقشة ما يقوله العمري من وجوه عديدة، أهمها:

1- أنّ الجرجاني إنّما كان يتحدّث عن قضية نقدية تتعلّق بقضية "اللفظ والمعنى" المشهورة، لا عن قضية كلامية تتعلّق بخلق القرآن أو صفة كلام الله.

2- أنّ الجرجاني كان يحاول إعادة الاعتبار للمعنى الذي أهملته الدراسات النقدية والبلاغية أو قلّلت من شأنه، اعتمادًا على مقولة الجاحظ حين أكّد أنّ العبرة باللفظ... وأنّ المعاني مطروحة في الطريق... ، وكان يردّ على المذهب الذي منح بعض الفضائل للفظ المفرد دون النظر إليه في سياقه اللغوي. ولم يكن يناقش مسألة كلامية.

3- أنّ مقولة المعتزلة تتّصل بمسألة كلامية متعلّقة بصفة الكلام في حق الله عز وجل، أي هي مسألة في صفات الله تعالى (خلق القرآن)، وليست مسألة بلاغية تتّصل باللفظ من حيث فصاحته أو من حيث هو صياغة وضرب من التأليف والتصوير...

4- أنّ مسألة خلق القرآن هي مسألة متعلّقة بكلام الله تعالى، أمّا ما كان يتحدّث عنه الجرجاني فشيء آخر يتّصل بالأدبية كخصوصية في الكلام بغض النظر عن قائله ، أي بالكلام الأدبي عموما، وورود عبارة: "الكلام النفسي" عند الجرجاني وعند المتكلمين لا يعني اشتراكهما في المعنى أو الغرض، وإنّما هو من باب الاشتراك اللفظي لا أكثر.

5- أنّ الجرجاني كان يحاول الإجابة عن سؤال بلاغي، وهو: كيف يتميّز كلامٌ عن كلامٍ بلاغيًا وأدبيًّا ؟ أو كيف نحدّد الميزة الأدبية والبلاغية في الكلام ؟ ولم يكن يجيب عن سؤال: هل كلام الله مخلوق أم غير مخلوق ؟

6- أنّ ردّ الجرجاني على الجاحظ والقاضي عبد الجبار المعتزليّيْن، أوْهَمَ أن الجرجاني كان يناقش مسألة كلامية، وليس الأمر كذلك، بل الواقع أنّ الجاحظ حين فاضل بين اللفظ والمعنى في عبارته المشهورة[53]، كان يتحدث عن الأدب، ولم يكن يتحدث عن شيء له صلة بخلق القرآن قطعًا.

إنّ الذي كان يشغل تفكير عبد القاهر، في نظرنا، هو "الميزة" التي يتميّز بها كلام أدبي عن آخر، و"الميزة" التي يتميّز بها الكلام الأدبي عن غير الأدبي، أي "أدبية" الأدب، وقد وجد ضالته من خلال البحث في الأسلوب أو النظم على طريقة خاصة، وهو يعرّف الأسلوب بأنّه: "الضرب من النّظم والطريقة فيه"[54]، وعبد القاهر لا يكتفي في البحث عن "الأدبية" بالنص وحده كما تفعل الدراسات الشعرية الشكلانية الحديثة، بل كان يحاول وضع تفسير شامل أو نظرية مركبّة عامة في تفسير الظاهرة الأدبية، تربط هذه النظرية العامة بين الاستقامة النحوية، وطريقة التأليف أو الأسلوب، والمعنى النفسي، والموقف المقامي في آن واحد، ولم ينسَ في سياق بحثه التأثيرَ النفسي في المتلقي الذي جعله "مقياسًا" أيضا، وهو مقياس لا يتحقق إلّا بشرط سلامة الذوق، وصفاء النفس، ونقاء الفطرة.

وأمّا ما يظهر للبعض أنّه تناقض في نظرية عبد القاهر، فليس ذلك سوى مظهر للهمّ الذي كان يحمله عبد القاهر لوضع نظرية شاملة في الأدب، وقد أدرك السكاكي حقيقة هذا الهمّ، فوجدناه يطلق على مشروعه في كتابه "مفتاح العلوم": "علم الأدب"[55]، ليعيد من خلاله صياغة نظرية عبد القاهر في إطار علمي منظّم. وعلم الأدب عنده يتضمّن ثلاثة أنواع أو أقسام: علم الصرف، وعلم النحو، وعلميْ المعاني والبيان[56]، وقد علّل اختياره لهذه الأقسام بأنّها تتناول "المفرد، والتأليف، وكون المركّب مطابقًا لما يجب أن يتكلم له"[57].

ويجدر بنا أن ننقل أقوال بعض الباحثين الذين يرون، كما نرى، أن الدراسات التي قدمها علماؤنا القدامى لم تكن بعيدة عما قدمه سوسير، ولا تقصير كان منهم في تلك الدراسات ولا لوم عليهم فيها، وإنما اللوم كل اللوم على الذين ورثوا تراثهم من بعدهم ولم يجتهدوا في استيعابه وتجديده وتطويره، وأهم مثال على ذلك هو الدراسات التي جاء بها الجرجاني والنظريات التي قدمها، والتي تتداخل بقدر كبير مع الدراسات اللسانية الحديثة، يقول محمد مندور:" إنّه (أي عبد القاهر) يستند إلى نظرية في اللغة، أرى فيها ويرى معي كلّ من يمعن النظر أنّها تُماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، ونقطة البدء تجدها في آخر "دلائل الإعجاز" حيث يقرّر المؤلّف ما قرّره علماء اليوم من أنّ اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات"، وقال: "مذهب عبد القاهر هو أصحّ وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربة لأيامنا هذه، هو مذهب العالم السويسري الثبت فردناند دي سوسير"، وقال محمد زكي العشماوي: "وهذا المنهج الذي يفسّر القيمة في الأدب بما يكون بين اللغة من علاقات هو المنهج الذي تلتقي فيه فلسفة اللغة بفلسفة الفن، والذي يرى أنّ التباين في الصياغة لا يوجد إلّا إذا وجد التباين في الإحساس، ودعوة عبد القاهر إلى التزام المنهج اللغوي في دراسة الأدب ونقده تلتقي مع وجهة النظر الحديثة "[58]، وقال أحمد مطلوب:" وتكاد الدراسات الأدبية

الحديثة... تتجه اتجاهًا آخر تخلص فيه للنزعة الأدبية والتحليل المعتمد على العلاقات بين الكلمات والجمل، وهذا ما سمّاه عبد القاهر الجرجاني النّظم، وما يسميه المعاصرون البنيوية"[59].

هذا، وقد سبق أن بيّنا أنه قد استقر في الدرس اللساني الحديث أن اللغة هي عبارة عن نظام من العلامات، أي وحدات لغوية تنتظمها مجموعة من العلاقات فيتشكل من مجموع الوحدات والعلاقات النظامُ اللغوي، واللغة بهذا المعنى تلتقي مع نظرية النظم كما شرحها الجرجاني، ويتساءل عبد العزيز حمودة عن عدم استخدام المصطلح العربي وهو "النظم" عوضا عن استعمال المصطلح الغربي "النظام"[60]، فكأنه يقترح بكل ثقة استعمال مصطلح "النظم" لاعتقاده أنه مرادف في مفهومه لمصطلح "النظام" في الدرس الحديث.

ولقائل أن يقول إن ما جاء به الجرجاني ليس واضحًا ومفصلًا وضوحَ وتفصيلَ نظرية سوسير، وإن القول بمطابقة الجرجاني لسوسير وللدرس اللساني الحديث، إنما هو استنتاج من كلام الجرجاني بعد جهد وتنقيب وغوص في البحث، بل ربما سلك إليه بعض الباحثين سبيل التمحل والتكلف في بعض المباحث لإثبات هذه المطابقة. فنقول: لسنا ندعي المطابقة التامة من جميع الوجوه وفي كل التفاصيل، ولكننا نقول بالمطابقة في أصل الفكرة وجوهرها وجذورها، وأما المطابقة التامة فيتعسر حدوثها لأسباب، أهمها:

1- التقدم الزمني للدراسات العربية، إذ إن من طبيعة العلوم في بدايتها، أي مرحلة التأسيس، أن يتم التركيز فيها على المبادئ الأولية، والقواعد التأسيسية، ثم يأتي دور الارتقاء والتدرج عبر التطوير والتهذيب والتفصيل... حتى تصل إلى مرحلة النضج والاكتمال في العصور اللاحقة. ومع ذلك فإن الباحث في تراثنا تصيبه الدهشة والإعجاب من المنجزات العلمية لعلمائنا القدماء، لما فيه من الإحكام والتطور والنضج المبكر.

2- أنّ العلوم أيًّا كانت لا يمكن أن تتجاوز أفقها المعرفي المرتبط بزمنها، وإمكاناتها، وحدود تطلعاتها وطاقاتها، ومدى ما يتهيأ لها في واقع حضارتها. وعلماؤنا القدامى بذلوا أقصى ما يمكنهم في زمنهم، وبلغوا أقصى ما أُتيح لهم الوصول إليه.

3- أنّ تطور العلوم، فضلا عن ابتكارها، كان قد توقف منذ قرون الضعف والتدهور العلمي والحضاري في العالم الإسلامي، وصارت التأليف عند المتأخرين مجرد شروح وحواشي على ما ألّفه المتقدمون لا إضافة فيه ولا ابتكار إلا نادرًا، وعليه فلا لوم على المتقدم إذا قصّر المتأخر، بل يجب الاعتراف للمتقدم بفضل السبق والتأسيس.

خاتمة:

وخلاصة القول أن نظرية "الوضع والاستعمال" التي تعد إحدى الأسس التي قامت عليها الدراسات اللسانية العربية القديمة، كانت نظرية رائدة سبقت الدراسات اللسانية الحديثة بقرون، وهي من حيث المفهوم والجوهر تلتقي مع نظرية "اللغة والكلام" التي أسّس لها دي سوسير في محاضراته واعتمدها من جاء بعده، وقد بينا ذلك بالشواهد والأدلة من كتبهم كما رأيتم في بحثنا هذا، وقد أكّد هذه الحقيقة باحثون كبار من أمثال عبد الرحمن الحاج صالح وغيره من المشتغلين بهذا الموضوع قبلنا. وتأخرُ شهرة نظريتنا العربية عن النظرية الغربية في

عالمنا الذي نعيش فيه، إنما يعود إلى تقصيرنا في البحث والدرس اللغوي، وإلى تأخرِنا في إحياء علومنا ونشرها، وإلى ضعفنا الحضاري والعلمي كذلك !! ويضاف إلى ذلك أيضا تطور بحوث الغربيين وتفوقهم العلمي والحضاري الذي أظهر علومنا في مظهر التخلف والانحطاط، والذي جلب إليهم جميع الأنظار ووجهها إلى نظرياتهم وإنجازاتهم دون غيرها، بغض النظر عن قيمتها العلمية وعن كونها موجودة عند غيرهم أم غير موجودة.

هوامش:

[1] ينظر عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص: 15.

[2] ينظر عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، ص: 31. تحت عنوان: من الانبهار بالعقل الغربي إلى احتقار العقل العربي.

[3] Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, p :08.

[4] فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، ص: 19.

[5] المرجع نفسه، ص: 19.

[6] المرجع نفسه، ص: 19.

[7] المرجع نفسه، ص: 22.

[8] المرجع نفسه، ص: 24، 27، 40.

[9] ينظر: جان بياجيه، البنيوية، ص: 12، 13. وعبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، ص: 166.

[10] 0zwald Ducrot,Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p :182.

[11] فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، ص: 26.

[12] المرجع نفسه، ص: 46.

[13] Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, p :73.

[14] فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، ص: 107، 108، 109.

[15] المرجع نفسه،ص: 154.

[16] المرجع نفسه، ص: 27.

[17] محمود سعران، علم اللغة، ص: 301.

[18] حاتم صالح الضامن، علم اللغة، ص: 129.

[19] فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، ص: 27.

[20] المرجع نفسه، ص: 27.

[21] المرجع نفسه، ص: 27.

[22] المرجع نفسه، ص: 38.

[23] تمام حسان، مناهج البحث اللغوي، ص: 32.

[24] فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، ص: 32.

[25] المرجع نفسه، ص: 38.

[26] المرجع نفسه، ص: 84.

[27] Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, p :346.

[28] فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز ، ص: 84، 85.

[29] المرجع نفسه، ص: 84.

[30] المرجع نفسه، ص: 86، 87.

[31] المرجع نفسه، ص: 42.

[32] المرجع نفسه، ص: 24.

[33] المرجع نفسه، ص: 32.

[34] المرجع نفسه، ص: 37،38.

[35] ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، ص: 203.

[36] عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص: 26.

[37] المرجع نفسه، ص: 12.

[38] سيبويه، الكتاب، 24/1.

[39] عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص: 13.

[40] المرجع نفسه، ص: 26.

[41] المرجع نفسه ، ص: 12.

[42] سيبويه، الكتاب، 211/1.

[43] المصدر نفسه، 211/1.

[44] المصدر نفسه، 214/1.

[45] المصدر نفسه، ص: 212، 224، 255.

[46] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 44. ينسب العمري هذا الرأي إلى تودوروف.

[47] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 48.

[48] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 81.

[49] المصدر نفسه، ص: 96.

[50] المصدر نفسه، ص: 98.

[51] المصدر نفسه، ص: 55.

[52] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 15.

[53] اعتذر عبد القاهر له بأن مقالته جاءت على سبيل المبالغة في الإنكار على من لم يستحسن الشعر إلّا لمعنى غريب أو حكمة. الدلائل: 255.

[54] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 468.

[55] أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 07.

[56] المرجع نفسه، ص: 07.

[57] المرجع نفسه، ص: 08.

[58] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 84.
[59] أحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، ص:82.
[60] عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، ص: 219.

المصادر والمراجع:

1- أحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد.
2- جان بياجيه، البنيوية، ترجمة عارف منيمنه وبشير أوبري، ط الرابعة 1985، منشورات عويدات، بيروت.
3- حاتم صالح الضامن، علم اللغة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد بيت الحكمة.
- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ط 1981، منشورات الجامعة التونسية بتونس.
4- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية-الجزائر-.2012.
5- عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية-الجزائر-2012.
6- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ط الثانية 1986، الدار العربية للكتاب، ليبيا.
7- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، ط 1998، عالم المعرفة، الكويت.
8- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، ط 2001، عالم المعرفة، الكويت.
9- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط الثالثة 1992-1413، مطبعة المدني، جدة.
10- عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة 1408هـ-1988م، مكتبة الخانجي ، القاهرة.
11- فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، طبعة: 1985، دار آفاق عربية، بغداد.
12- محمود سعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت.
13- Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, Arbred'Or, Genève août 2005.
14- Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, Larousse-Bordas/VUEF 2002.
15- 0zwald Ducrot, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Editions du Seuil , 1972.